## مدخل
# فى اللاشعور

أهم العمد التى تقوم عليها مدرسة التحليل النفسى هى الإيمان بوجود نشاط مخبوء فى طيات النفس يدفع بها إلى مختلف صنوف العمل الذى تقوم به وكافة ألوان التفكير الذى تعرض له . ولهذا كان من الخير أن نعرض للآراء الفلسفية والعلمية التى مهّدت لليقين من هذه الفكرة .

## ١
## النظر الفلسفى إلى اللاشعور[1]

لم ينصرف البحث الفلسفى فى مطلعه إلى التفكير فى طبيعة النفس أو النظر فى خصائصها ، لأن العقل يبدأ بإدراك مايخرج عنه ، قبل أن يرتد إلى النظر فى نفسه . لهذا بقيت الفلسفة الإغريقية أول الأمر بحثاً فى طبيعة العالم وأصوله ، حتى وفد السفسطائيون ودعوا إلى « أن الإنسان مقياس لكل شىء » . فتحول التفكير نحو النظر فى العقل الإنسانى وفى قدر ما يستطيع أن يدرك من حقائق الوجود وقيم العالم ، وازدهر البحث فى النفس الإنسانية من بعدهم .

وقام سقراط ينقض دعواهم ، وبدأ فلسفته بدعوة الإنسان إلى « معرفة نفسه » فتحول النظر من السماء إلى الأرض كما قال شيشرون . . . ولو أنه من العسير أن نبتسر القول فندّعى أن معرفة اللاشعور تبدأ منذ ذلك الحين ، إلا أن قليلا

---

(١) Unconscious (n.) ومن الخطأ استعمال عبارة « العقل الباطن » كما جرى على ذلك كتاب الجماهير فى اللغة العربية .

من التأمل يدفعنا إلى الظن أن الفلاسفة أخذوا من هذا الوقت يبحثون عما قد يجرى فى النفس من نشاط دون أن يفطن المرء إليه . ولعل فى منهج سقراط من التهكم والتوليد[١] ومحاولته إرشاد من كان يتلقفهم من القوم فى عرض الطريق إلى الحقائق المخبوءة فى أعماق نفوسهم ، دون أن يفطنوا إلى وجودها بين جوانحهم ، ما يرجح وجود بذرة صغيرة عن فكرة اللاشعور منذ سقراط .

فتر النظر فى النفس بعد سقراط . حتى أن أفلاطون لم يعرض لبحث النفس إلاّ كوسيلة للبحث فى نظرية المعرفة ، مع أنه كان يتحدّث من حين إلى حين عن النظر فى النفس وملاحظة نشاطها والتفكير فى طبيعتها — ذكر فى خارميدس أن معرفة المرء نفسه هى : علمه وتفطنه لما يدرك . وفى هذا لمحة لها جدواها إلى ما قد يجرى بالنفس دون أن يكون لها علم به . ويزداد هذا التلميح وضوحاً فى فيلابوس حين يقول أفلاطون : إن الحصول على اللذة لا يكفى للشعور بالسعادة إذ لا بد من إدراك اللذة للاستمتاع بها « فإذا حرمت من العقل والذاكرة والرأى المصيب ، تحتم أن تجهل اللذة التى قد تحصل عليها ، إذ أنك عندئذ تكون محروماً من كل ألوان التفكير[٢] » . كما يشير مرة أخرى فى فيلابوس[٣] إلى الإحساسات التى تتهافت عند البدن فلاتتعداه إلى النفس تاركة إياها فى هدأتها ، وإلى غيرها من الإحساسات التى تخترق البدن وتتعدّاه إلى الروح وبهذا تبعث الحركة وتثير النشاط فى كل من البدن والروح .

ولعلّ فى نظرية أفلاطون عن المعرفة لمحة أبين فى الإشارة إلى اللاشعور عند حديثه عن الجدل الصاعد وقوله بعد الكلام عن التجربة الحسية والعلوم الرياضية ،

---

( ١ ) كان سقراط يعمل على فحص الإنسان لا على إقامة فلسفة معينة : يلقى الفتى فيلاحقه بالسؤال بعد السؤال حتى يثبت له أنه يجهل أمر نفسه . فكان يصطنع التهكم Ironie ليبين للقوم أنهم مخطئون إذا خيل إليهم أنهم يعرفون شيئاً عن حقيقة ما يجرى فى نفوسهم ، ثم يعين محدثيه على الوصول إلى الحقيقة التى أقروا من قبل أنهم يجهلونها وهذا هو التوليد Maïeutique .

( ٢ ) Platon : Philèbe, 21, v.

( ٣ ) Ibid : 35, d,e.

إن المعرفة الحقة هى معرفة الماهيات والمثل ، وإننا نستطيع أن نكشفها فى النفس بالتفكير إذ بوساطته نستطيع أن نستخرج من أنفسنا معارف لم نكتسبها من أحد قبل ، ويفسر أفلاطون ذلك برأيه عن التذكّر(١) الذى يقول به إن النفس لا بد أن تكون قد اكتسبت تلك المعارف فى حياة سابقة على حياتها الحاضرة حين كانت تعيش فى صحبة الآلهة تتأمل الموجودات تأملا مباشراً فلما اتصلت بالبدن أنسيت ما عرفت . غير أنها تستطيع بوساطة الاستقراء أن تصل إلى ما هو مخبوء فى أعماقها كما يستطيع أهل « الكهف » إذا أداروا ظهورهم أن يدركوا الأشياء على حقيقتها . ومع أن نظرية أفلاطون تدور فى غالبها على الناحية الفكرية ، فيمكن أن تعتبر بدءاً للنظر إلى جانب من اللاشعور .

وقد يكون من الطريف أن نذكر هنا أن أفلاطون عرض للأمراض العقلية وورد عنه قول لعله أقدم ما سجل عن أصول معاملة المعتوهين : « إذا أصيب أحد بجنة فينبغى ألاّ يقع تحت أنظار أهل المدينة ، بل ينبغى على أهل مثل هذا الشخص ، أن يقوموا على رقابته فى الدار على خير منوال يعرفون ، فإذا تبين منهم الإهمال ، كان عليهم أن يدفعوا غرامة جزاء لهم على مافرّطوا فى واجبهم(٢) . »

أما أرسطو فلم يعرض للمسألة عرضاً مباشراً — إلا برأيه فى التفرقة بين العمليات العقلية وبين تفطن العقل لهذه العمليات ، فقال إنه « زيادة على السمع والبصر ندرك أننا نسمع ونبصر »(٣) .

غير أن الرواقيين(٤) هم أول من بحث الشعور بحثاً جديًّا فقد نظروا فى خصائص النفس الإنسانية وجهدوا فى جمعها وتبويبها ، فقالوا إن للنفس الإنسانية امتدادات سبعة هى الحواس الخمس وملكة الكلام وملكة الإنجاب — على أنه يوجد فى أعماق الإنسان مبدأ عقلى يسيطر على الحسّ والشهوة وهو يفكر

---

(١) Réminiscence.

(٢) Platon : *République* XI, c, 15.

(٣) Aristote : *De Anima* 3, 3.

(٤) الرواقيون هم أول من استعمل لفظ الشعور .

ويريد. ويستطيع المرء أن يدرك هذا المبدأ الخفى بوساطة الشعور، إذ هو أداة يمكن النفس أن نتعرف بها على ما يجرى فى ثناياها من نشاط وحركة.

وانسربت تلك الفكرة من الرواقيين إلى الفلسفة اليونانية من بعدهم. ثم كانت الأفلاطونية الجديدة أول مدرسة تحدثت عنها فى وضوح وجلاء يبعث على الإعجاب حقاً. على أن اللون الصوفى للمدرسة دفع بها عن النظر فى العقل الشعورى إلى القول بأن النفس إن استطاعت أن تتخفف من الأوهام التى تفد إليها عن طريق الحسّ والبدن ارتفعت بتأمل المعقول إلى استكشاف طبيعتها الخالصة.. ولن تتمكن النفس من ذلك إلا بإغراق الشعور والتسامى عليه للوصول إلى مرتبة الكشف.. وهى بهذا لا تخرج عن طبيعتها فليس الكشف سوى التغلغل فى أعماق النفس والوصول إلى الحقائق التى تختبئ بين ثناياها.. وهكذا تستطيع النفوس العليا أن تدرك وأن تعمل دون شعور منها بما تدرك أو تعمل لأن أسمى الفضائل لا تشعر بها النفس. كما أن أفلوطين يشير إشارات صريحة إلى التفرقة بين الشعور واللاشعور حين يقول: «كثيراً ما يحدث لنا فى حالات الصحو أن نفكر وأن نعمل دون أن نشعر بتلك العمليات فى أثناء قيامنا بها. فليس من اللازم إذا كنا نقرأ شيئاً ما أن نشعر بأننا نقرأ، خاصة إذا استغرقتنا القراءة استغراقاً تاماً.. بل إن الشعور بعمل من الأعمال ليضعف النشاط فيه، بينما يكون العمل وحده (دون الشعور به) أشد نقاء وأكثر حيوية وصفاء»[1].

وقد أثرت هذه الفكرة الأخيرة فى التفكير الفلسفى بعد أفلوطين فانصرف اهتمام الكثيرين، خلال العصور الوسطى والحديثة، إلى البحث عن الانتباه وعلاقته بالعمليات العقلية وإمكان التفرقة بينه وبينها. كما جهد كثيرون فى التمييز بين النشاط العقلى وبين إدراك هذا النشاط.

أما مسألة الشعور واللاشعور فقد ساد الصمت عنها، بعد التوفيق الذى وصل إليه أفلوطين، أمداً طويلا يمتد من القرن الثالث إلى القرن السادس عشر

(١) Plotin : *Innéades* I, 4, 10.

حين تحدث مونتيني عن الشهوة والتفكير وأشار إلى أن الشهوة قد تعتمل بالنفس أحياناً دون أن يدركها المرء أو يفطن إلى وجودها .

ثم مر ما يقرب من قرن آخر قبل أن يثير ليبنتز البحث من جديد فيدخل فى الفلسفة مسألة اللاشعور التى لازمت التفكير فى النفس وازداد الاهتمام بدراستها منذ ذلك الحين ، قال : « تحتم علينا آلاف من الأدلة أن نقرر أنه يوجد فى نفوسنا على الدوام مدركات لا حصر لها ، لكن دون إدراك منا لها أو تفكير فيها ، أى تغيرات فى العقل ذاته ، لا ندركها . لأن العوامل التى تثيرها شديدة الصغر كثيرة العدد ، أو شديدة الوحدة والتماسك حتى ليصعب أن تتميز بعضها عن بعض متفرقة . لكنها إذا ما اتحدت لا تنى عن التأثير ويمكن الإحساس بها ضمناً ، إحساساً غامضاً على الأقل »(١) .

فنحن إذن ، على ما يقول ليبنتز ، نفكر فى كثير من الأشياء فى آن واحد ، غير أن كثيراً من تلك الأفكار يعزب عن البال بتأثير العادة أو عدم الانتباه ، إذ أن فى أعماق المرء نشاطاً لا يشعر هو به لاختفائه فى أغوار نفسه . ويمكن على ضوء هذا النشاط أن نفهم اختلاف الأذواق والأمزجة بين الأفراد أو موجات الحزن وألوان المرح التى قد تعرض لبعضهم دون علة ظاهرة . بل لو استطعنا أن نحلل النفس لأمكن ، على حد قوله أيضاً ، أن نفسر الأحلام وما يحدث فى الهذيان ونعرف العلة التى توقظ الإنسان من سباته العميق وغير ذلك من الشئون التى لا يمكن أن نهتدى إلى تفهمها إلا إذا سلمنا بأن بالنفس أفكاراً تخفى على الشعور ولا يدركها الفرد(٢) تدفع بالمرء إلى وجوه من النشاط يخيل إليه أنه لم يتعمد القيام بها مع أن أداءه لها يكون نتيجة لازمة عن كثير من الأفكار الصغيرة المخبوءة التى تعمل على توجيه النشاط الفردى وتقوم بتكوين العادات بل العواطف نفسها ، كما يصدر هدير الموج أصواتاً لا عد لها ولا حصر من

(١) Leibniz : *Nouveaux Essais sur l'Entendement humain*, Avant Propos.

(٢) Perceptions inaperçues.

اصطفاق الموجات الصغيرة بعضها مع بعض .

بل إن لهذه المدركات الصغيرة خطراً أكبر من هذا « حتى ليمكن أن يقال إن الحاضر يكون نتيجة لهذه المدركات الصغيرة ، مفعماً بالمستقبل محملا بالماضى »[١]. وقد كان لهذا الرأى الأخير ، أثر كبير فى نظريات المحدثين نظراً لما تركته فلسفة ليبنتز فى التفكير الأوربى وخاصة فى ألمانيا .

كتب كانت مثلا ، فصلا عن « المدركات التى لا نشعر بها »، فوصفها « بالظلمة » مناقضة لغيرها من المدركات التى تتصف « بالوضوح » والجلاء، بل إنه ليضرب لذلك مثلا يدعو إلى العجب وإعمال الفكر ، هو اللباقة فى التلميح إلى الأمور الجنسية فى المجالس المهذبة ، والعمل على إخفائها والتهرب من الخجل الذى يبعثه الحديث المكشوف عنها . وقال مشيراً إلى ما يخفى علينا من ألوان النشاط النفسى : « إن ما لا نشعر به من أنواع الحدس[٢] والمؤثرات التى يمكن إحساسها حقل لا حدود له ، لأن الأفكار الواضحة لا تشغل من النفس إلا حيزاً متناهياً فى الصغر ، يضيئه الشعور . فإذا عرفنا تلك الحقيقة التى تبين أنه لم يستكشف فى عالم الفكر الفسيح سوى جانب ضئيل من مجاهله ، كان علينا أن نمعن التأمل فى طبيعة الإنسان عن دهشة وعجب »[٣] .

وكان رأى هربارت فى المسألة أكثر عمقاً وتحديداً إذ قرر أن المدركات قد يطغى بعضها على بعض ، فلا تزول المهزومة بل تتحول إلى رغبة فى الإدراك، وهكذا تنحدر الأفكار إلى اللاشعور لا لقصورها عن ابتعاث النشاط ، بل لأن أفكاراً أخرى قد طغت عليها فدفعت بها إليه .

ومع أن فلاسفة الإنجليز وجهوا كل اهتمامهم إلى التفرقة بين النشاط النفسى وبين الشعور به، واتجهوا إلى دراسة مايمكن أن يدركه العقل، وحاولوا أن يقصروا إدراكه على الظواهر فحسب ، إلا أن هاملتون الذى تأثر بفلسفة كانت من

---

(١) Leibniz : Op. cit.

(٢) Intuition

(٣) Kant : *Anthropologie*, 5.

ناحية وبفلسفة ريد من ناحية أخرى ، زاد عناية بدراسة اللاشعور فسلم بوجود العمليات العقلية اللاشعورية تسليما لاتردد فيه، ثم رتبها فى درجات ثلاث من «الكمون».

فى المرتبة الأولى منه توجد معرفة اللغة « لا فى استطاعتى فحسب أن أستخدمها تبعاً لما يعرض من ظروف ؛ بل فى قدرتى على اصطناعها حينما أريد وكيفما أريد »(١) — وليس فى هذا نقاش أو شك .

وتكون المرتبة الثانية من الكمون « حين يوجد فى العقل نظم معينة من المعرفة أو عادات خاصة للعمل لا يشعر وجودها العقل على أى وجه من الوجوه فى حالته العادية، لكنها تتكشف للشعور أحياناً فى بعض أحوال نشاطه الخارق للعادة »(٢). ويقول هاملتون إن الفلاسفة أهملوا دراسة تلك الظاهرة إهمالا تامًّا .

وفى المرتبة الثالثة توجد العمليات التى كان الفلاسفة يتعرضون دواماً للبحث فيها، وهى نشاط مخبوء فى اللاشعور تتضح له آثار تظهر فى الشعور فندركها ونحس بها.

ومع أن هاملتون خلال هذا البحث العريض لم يعالج علة الكمون فى النشاط العقلى ، إلا أننا نستطيع اعتماداً على تأييده الكبير لفلسفة ليبنتز أن نظن أنه يعلل جانباً من هذا الكمون بما كان يعلله به ليبنتز من قبل وهو « عجز الانتباه » عن إدراك العمليات لتعقدها والوحدة التى تربط عناصرها .

وبعد هاملتون أغرق الفيلسوف الألمانى هارتمان فى « فلسفة اللاشعور » ، فتحدث عن اللاشعور فى الحب الجنسى ، واللاشعور فى السلوك والأخلاق ، واللاشعور فى الأحكام الجمالية والإنتاج الفنى ، واللاشعور فى التصوف، بل عن اللاشعور فى التاريخ نفسه . ومع هذا لم يبخس الشعور حقه فقرر له حدود عمله وفرّق بينه وبين اللاشعور فى قدرة الأخير وحده على الإبداع والافتنان، فقال إن « التفكير الشعورى يقتصر على النقد والإنكار والمقابلة والتصحيح والتصنيف والقياس والموازنة والربط ، واستنتاج العام من الخاص ، وترتيب الحالات الخاصة تبعاً للقاعدة العامة، غير أنه لا يمكن أن يبدع فى الإنتاج أو يفتنّ فيه، إذ يعتمد

---

(١ و ٢) Hamilton : *Lectures,* lect 28.

الإنسان فى ذلك على اللاشعور كل الاعتماد(١) » .

ويقيم هارتمان المبادئ العليا لفلسفته على عمادين : « الفكرة » التى أسرف هيجل فى الدعوة لها ، و « الإرادة » التى بشر بها شوبنهور من ناحية أخرى . فجمعهما هو فى اثنينية تقول إن الفكرة توجد فى الشعور فى أحوال خاصة ، أما الإرادة فهى فى اللاشعور أبداً . والشعور عنده مراتب فى الغموض يصل إلى أقصاه فى الأعماق حيث لاظواهر تصدر أو تبين عما يجرى فيها ، كما أنه يتميز بكونه نشاطاً بحتاً خالصاً .

علقت فكرة اللاشعور بعد ذلك بعلم النفس واشتدّ الإيمان بها وكثرت الدعوة لها ، وخاصة بعد التسليم بفكرة العليّة فى علوم المادة ؛ ذلك لأن الاستبطان وهو خير مناهج السيكلوچية الكلاسيكية لم يكن كفيلا بتفسير كثير من ظواهر السلوك التى لا يمكن التحقق من عللها أو التماس أسباب لتفسيرها ، إلاّ بافتراض الوحدة فى الحياة النفسية ، وإقرار التواصل والاستمرار فى النشاط العقلى حتى يمكن القول بوجود ألوان من التفكير تبقى مختبئة فى النفس إلى أن تحين لها الفرصة للظهور سافرة أو مقنعة .

ومع هذا لم تكن الاعتراضات التى وجهت إلى فكرة اللاشعور ، حتى من الداعين إلى التسليم بها ، قليلة أو يسيرة :

فقد قيل إن عبارة الظواهر النفسية غير الشعورية عبارة مبهمة شديدة الغموض بل فيها تناقض صارخ عجيب ، إذ كيف يمكن نفى الشعور عن ظاهرات الشعور أو القول بفكرة ليست بفكرة ، إذ أنه لما كان الشعور هو لبّ التفكير وماهيته فإن الأمر إذا امتنع عن أن يكون شعوريًّا امتنع فى نفس الوقت عن أن يكون أمراً نفسيًّا . هناك حقًّا ظاهرات فسيولوچية لاشعورية تسبق الإدراك الحسىّ مثلا أو الانفعال لكنها لا تدخل فى نطاق النشاط النفسى . أما القول بوجود ظاهرات نفسية لاشعورية فهو قول مهلهل مردود . ولم يُثر هذا الاعتراض أشياع لوك ،

(١) Hartmann : *Philosophy of the Unconscious* (B) VI.

الذى عارض الرأى بالتفكير اللاشعورى من أساسه، هم وحدهم، بل أثاره هاملتون أيضاً على تأييده الكبير لوجود اللاشعور ، ودافع عن تناقضه مع نفسه بأنه حين كان يتحدث عن اللاشعور كان يقصد « التغير الكامن » فى النفس فحسب . كذلك قال كثيرون حتى هارتمان نفسه: « من المؤكد أن المرء يناقض نفسه إذا تحدّث عن ظواهر نفسية لا يشعر بها أى شعور ». ثم هو يحاول أن يبرر تراجعه عن بحوثه العريضة فى اللاشعور بأن ما كان يعنيه بالظاهرة اللاشعورية هى أنها ظاهرة ليست شعورية جداً .

ولهذا الاعتراض قدره ، إذ كان من اللازم لقبول فكرة اللاشعور فى علم النفس جانب كبير من الألفة والتعوّد، فقد مرّ بتاريخ غيره من العلوم أن قبلت فروضاً كان يبدو للقوم أنها سخافات لا يمكن أن يقبلها منطق سليم أو عقل راجح ثم ثبت لهم بعد ذلك صوابها ولزومها ، مثل ذلك الحساب اللامتناهى وقانون الجاذبية . ولهذا لم نعد نرى فى القول بوجود الظواهر النفسية اللاشعورية من التناقض شيئا، إلا ما يلوح للمقبلين عليه لأول سماعهم به . فإن كانت الدلائل تدعو إلى الخلط بين الأمور النفسية والشعورية — لأننا لا نعرف النفس إلا بوساطة الشعور — فليس هناك مايدعو إلى القول بأن الشعور هو ماهية التفكير. ولعلّ من الأصوب أن نعرّف التفكير بأنه الحرية والقدرة على التماس الحلول التى تؤدى إلى غايات معينة ، وبإمكان التصرف فى المواقف المختلفة ؛ خيراً من أن نقصره على قدرته فى الوضوح لنفسه . فإذا فرّقنا بين النشاط النفسى وبين إدراك هذا النشاط ولم نقصر ماهية التفكير على الشعور ارتفع التناقض عن القول باللاشعور .

وثمة اعتراض آخر يقول بأن الظاهرات النفسية اللاشعورية ، لكونها كذلك لا يمكن معرفتها أو الاهتداء إليها . فلأنها نفسية لا يمكن دراستها من الخارج كدراسة الظواهر الفسيولوجية أو المادية ، ولأنها لاشعورية لا يمكن ملاحظتها من الداخل . وهكذا تمتنع دراستها على أى منهج من المناهج . فكأنها

لم تكن وكأن وجودها عدم . وهذا القول مردود أيضاً لأن الحقيقة التى لا يمكن التثبت منها بأية وسيلة من الوسائل يمكن التعرّف عليها بما يتضح لنا من آثارها إذ يلزمنا أن نكوّن رأياً خاصاً عن العلة التى تنتج هذه الآثار . فمع أن الناس ، مثلا ، لا يرون من القمر إلا وجهاً واحداً لم يتردد أحد من أصحاب الفلك فى القول بوجود وجه آخر له مختبىء عن أنظارنا . وإذا كنا لا نحسّ بأمواج الأثير فإن كثيراً من أصحاب الطبيعة ما زالوا يفترضون وجوده ويعملون فى قياس آثاره وتحديد اتجاه موجاته . فإذا كانت مقدّمات العلم ومبادئه تبرر يقين أصحاب الفلك والطبيعة ، كان فى بسائط الخبرة اليومية ما يرغمنا على التسليم بوجود نشاط نفسى فى الغير مثل ما يوجد فى نفوسنا أولا ، ثم على التسليم بوجود نشاط لاشعورىّ يدفعنا إلى الإيمان به صنوف شتّى من السلوك والتفكير لا يمكن تفهمها إلا بالتسليم بعلل مخبوءة فى النفس دفعت إليها ثانياً .

ثم هناك اعتراض آخر يدحض التعقل اللاشعورى ويدعو إلى الالتجاء إلى الفسيولوچيا ويدّعى أصحابه أن ما قد يحدث فى اللاشعور إن هو إلا سلسلة من العمليات الفسيولوچية التى قد تؤثر فيما بعد على الشعور ؛ لكنها فى نفسها ليست عقلية . ويقصد هنا بالعمليات العقلية : العمليات التى يلازمها الشعور . وأطلقوا على ذلك النشاط الفسيولوچى الذى يغيب عن الشعور اسم « الاستمخاخ اللاشعورى »[1] ، غير أنه يمكن الرد على ذلك الرأى بأنه توجد حالات كثيرة لا تتصل بالشعور كما أنها تتصف بالتعقل والإدراك مثل حل المسائل الحسابية وغيرها فى أثناء النوم والحالات التى تعقب التنويم . هذا إلى أن ربط العمليات العقلية بمقدمات فسيولوچية لها قول متهافت يثور عليه أصحاب علم النفس ويدحضون ذلك بأدلة تثبت للنفس ما يكفى من تلقائية وإنتاج أصيل .

---

(١) Unconscions cerebration

## ٢
# الآراء الاختبارية فى اللاشعور

عرضنا فيما سبق للمحاولات النظرية فى البحث عن اللاشعور ، ورأينا كيف أن النظر الفلسفى تقدم على مرّ الزمن حتى حدد للاشعور معنى ، وسلم بوجود ضروب من النشاط تجرى فى النفس دون وعى منها ، وبين أهمية ما لذلك النشاط من أثر واضح قوىّ فى التفكير والسلوك ؛ ومع هذا لم يسلم ذلك الرأى من نقد وُجّه إليه ، شأنه فى ذلك شأن كل مذهب أو فكرة تقوم على مجرّد النظر أو التأمل ، حتى لقد أنكر البعض وجود اللاشعور إطلاقاً ، كما أنكر آخرون إمكان دراسته .

لكن هناك لوناً آخر من ألوان البحث قام بعيداً عن ذلك النحو ، واتخذ منهجاً آخر من مناهج الدراسة ، ثم وصل إلى نفس النتيجة فالتقى بالبحوث النظرية حيث انتهت . وكانت الأدلة الاختبارية والآراء التى قال بها خير ما يدحض حجج من حاولوا نفى فكرة اللاشعور ، لأن تلك الأدلة تقوم على التجربة وتعتمد على الواقع .

ذلك اللون من البحث هو الدراسة الموضوعية للأمراض العقلية والنفسية . نستطيع فى شىء من العسر أن نعود بها إلى سجلات الشعر الإغريقى وأساطير اليونان ، حين يتحدثون عن النوبات التى كانت تعتور الأبطال . كما تحوى أوراق البردى المصرية أحاديث عن بعض مظاهر الأمراض العقلية كما نعرفها اليوم[1] ؛ هذا إلى ما ورد فى التوراة من مثل هذه الأخبار عن شاول وداود .

---

(١) ورد عن قدامى المصريين وصف لعته الشيخوخة Senile Dementia قيل فيه « يثقل قلب المرء ويغيب أمسه عن ذاكرته » ، وأيد « إليوت سميث » ذلك بما وجد من تصلب فى الشرايين عند تشريحه لبعض المومياات . والتصلب فى حالاته المتأخرة ، كما هو معروف ، قد يؤدى إلى تلك الأعراض .

وكان الصرع خاصة هو أهم الأمراض العقلية التى ألفها القدامى ، وقد عرف عندهم باسم المرض المقدّس ، لكن أبقراط بنافذ بصيرته أنكر عليه تلك القدسية ولم ير فى نسبتها إليه إلا جهلا من العامة يدفع بهم إلى اصطحاب مرضاهم إلى المعابد يقدمون القرابين و يتقرّبون بالصلوات والأدعية . وقال إن المخ هو عضو العقل. وأنكر تبعاً لذلك أية علة غيبية أو غامضة تسبب الاضطرابات العقلية أو النفسية .

وترنح علاج المرضى عند اليونان والرومان بين طرفين : كان يقوم أحدهما على الحرمان من الطعام والضرب بالسياط والربط بالسلاسل والفصد . بينما يدعو الآخر إلى أخذهم باللين والرياضة والموسيقى ، والترويح عنهم فى الهواء الطلق واصطحابهم فى رحلات على اليابسة أو على الماء ينصتون إلى خرير الماء واصطفاق الموج ، كما نصح البعض بالتقرب إليهم بالحديث ودفعهم إليه فلعلّ لهم فيه دواء ، أو سلوى على الأقل(١) .

أما فى العصور الوسطى فقد تركت معالجة الأمراض العقلية للكهنة و رجال الدين كما أشبعت بالخرافات والسحر ، فلاقت الشعوذة فى ذلك الميدان سوقا رائجة وبقيت كذلك حتى القرن السابع عشر ؛ فاتخذت طريقين : أحدهما هو الأسلوب الطبى الذى يعتمد فى صميمه على التماس العلاج بالأدوية والعقاقير واعتبار الأمراض العقلية عللا بدنية خالصة يجدى فى التخلص منها ما يجدى فى العلل الأخرى من وسائل ، وليس لنا هنا أن نعرض لتقدم ذلك النحو من العلاج إذ هو من صناعة الطب . أما الطريق الآخر فهو التماس العلاج للمرضى بالوسائل النفسية والعقلية .

بقيت هذه الناحية مرتبطة بدراسة الأرواح والأبحاث اللاهوتية وظلت مغلقة على التفكير حتى القرن السادس عشر حين ذكر « باراسيلس »(٢) أنه يرجح وجود عامل معين يهيىء كل عقل من العقول للتأثير على عقول الآخرين وأشار

---

( ١ ) يذكرنا ذلك بمطالع التحليل النفسى وبحديث الفتاة التى كان يعالجها بروير فكانت تفد عليه قائلة : « دعنى أتحدث فلى فى الحديث شفاء » .

( ٢ ) Paracelse (1493-1541)

إلى أن هذا العامل قد يكون نوعاً من التيار المغناطيسى . ثم قال بعض أتباعه إن الأمراض العقلية تعود إلى فقدان ذلك التيار أو انسحابه من العقل و إلى أنه يمكن استرداده بوساطة المغناطيسية . كما زاد « هيلمونت »(١) على ذلك أن التيار المغناطيسى يشع من عقول الناس ولهذا كانوا يستطيعون توجيهه على النحو الذى يبتغون إن هم تعمدوا التأثير على عقول غيرهم .

ثم وضع « مسمر »(٢) بعد ذلك بقرن تقريباً نظريته فى الجاذبية الحيوانية كما كتب كثيراً عن القوّة المغناطيسية لليد ، لكنه خلط ذلك بتأثير الكواكب والأفلاك على البدن، ومنذ ذلك الحين عرفت المغناطيسية والإيمان بها باسم المسمرية . ثم زاد بعض المؤمنين بها دراستهم « لتجوال النوم »(٣) وأدخل غيرهم إلى جانب المسمرية الكهرباء مكملا لها حتى اخترع « بركنز » ملفاً مغناطيسياً لتدليك المرضى . وكان من أثر النجاح السريع والقفزات الواسعة التى اجتازتها علوم المادة بعد ذلك أن اشتدّ الاهتمام بالمظهر المادى لكل شىء، فضعف الإيمان بالمسمرية و بالدراسات النظرية المجردة للنفس ، واتجه نحو الدراسة التجريبية تبعاً للنزعة العامة التى كانت تدعو إلى الاعتماد على التجربة والواقع الملموس ، ومع هذا أثبت « بريد » و « برتراند » أن المسمرية حالة ذاتية يمكن إنتاجها بوساطة الإيحاء(٤)، كما أنهما وضعا لفظ التنويم المغناطيسى(٥) .

ثم نهض « شاركو » بعد ذلك بتلك الدراسة نهضة سريعة فى أواخر القرن التاسع عشر فأثبت أن الأفكار المرضية يمكن أن تنتج أعراضاً هستيرية . وأن تلك الأفكار والأعراض يمكن أن تتأثر بوساطة التنويم المغناطيسى ، وهكذا اعتبر الهستيريا مرضاً نفسياً ينتج من الإغراق فى اختراع الأفكار و يستجيب المصابون به للإيحاء ، كما اعتبر النوم المغناطيسى نفسه حالة مرضية تشبه الهستيريا.

وقرر أصحاب مدرسة نانسى أن النوم المغناطيسى حالة تنتج من الإيحاء ،

---

(١) Van Helmont (1577-1644) (٢) Mesmer (1734-1815)

(٣) Somnambulisme (٤) Suggestion (٥) Hypnotisme

واعتبروا الاثنين خلافاً فى الدرجة فقط . وإن يكن الإيحاء كما يقولون نتيجة لعامل فطرى فى النفس ( يقرب من التعاطف[١] عند « مكدوجال » ) ، كما أنهم استبدلوا بكثير من عوامل التنويم الحسية غيرها من المثيرات اللفظية .

وقد زاد « بابنسكى » و « فرومنت » فى شرح الإيحاء فقالا بأن أهمية الإيحاء هى فى أثره فى اقتلاع فكرة معينة تكون هى الباعث على ظهور الأعراض المرضية لما لها من قوة دافعة . وقالا إن العلاقة بين الطبيب والمريض تمكن الأول من استخدام تلك الفكرة والسيطرة عليها واصطناع قوتها فى كف نشاط الأفكار المناهضة لها .

ثم استبدل الإيحاء الذاتى[٢] بالإيحاء الخارجى[٣] وقيل إن للفكرة الموحى بها فيه قدرة على الانعكاس الفكرى تغرسها فى النفس وتعمل على تمكينها فى أعماق الشعور .

ومن الناحية العلاجية ترك « ديجيرين » و « ديبوا » الإيحاء إلى الإقناع[٤] ، إذ بدلا من عرض الفكرة على المريض عرضا كله جد وتطلع إلى غاية مرجوة النفع والجدوى من ذلك العرض ، عمل كل منهما على أن يتجنب فرض آرائه على المريض ودفعه إلى قبولها قبولا أعمى ، بل كانا يحاولان اكتساب تعاون المريض باللجوء إلى تفكيره واستثارة نشاطه العقلى . وزاد « ديجيرين » على ذلك : أنه لم يقتصر على محاولة اجتذاب عطف المريض عن طريق التفكير الراجح والرأى المنطقى فحسب ، بل كان يعمل على اكتساب عونه أيضاً عن طريق الوجدان . هذا إلى أنه أشار إلى فكرة سوف ترى فيما بعد أنها كانت عماداً لسيكلوجية أدلر هى أهمية القصور والتعويض الزائد . كما أن روزانوف الذى نسب الأمراض النفسية إلى ثلاثة عوامل هى القصور البدنى والقصور المعنوى والمواقف المثيرة ، اقترب هو الآخر من رأى أدلر فى اعتباره « الاعتلال »[٥] وسيلة لغاية معينة .

وقد بين «جانيه» الدور الذى تلعبه « الأفكار الثابتة »[٦] فى تعليل الهستيريا ،

---

(١) Sympathy

(٢) Auto-suggestion

(٣) Hetero-suggestion

(٤) Persuasion

(٥) Invalidisme

(٦) Idées fixes

كما زاد المسألة وضوحاً بإثباته أن التخدير فى الهستيريا لا يكون تخديراً صحيحاً ؛ وخلص من ذلك إلى أن هناك من الإحساسات ما لا يدركه العقل حين يوجد حدّ من الشعور أو شطر فى مجراه يؤدى إلى إغفال الجزء المنفصل وعدم إدراكه . وقد نسب جانيه هذا الانفصال إلى « تهافت » فى القوى التركيبية ، قائلا إن فى النفس توتراً يتوقف عليه اكتمال الشخصية ، فإذا ماتراخى هذا التوتر نتج عنه انفصال جانب من الشعور وغيابه عن العقل والإدراك .

واتخذ البحث فى أمراض النفس بعد ذلك وجهات ثلاثاً : فأخذ « بواراك » ناحية التنويم المغناطيسى فاشتغل بها هو وغيره كما اشتغلوا فى الظواهر الروحية .

واتجه البحث اتجاهاً مادياً بعد أن بدأ «فوندت» علم النفس التجريبى ، وازداد الاهتمام بالناحية الفسيولوجية عند « بافلوف» و « بشترف » حتى ظهرت النظرية السلوكية مع « واطسون » .

وبلغ الجانب النفسى أوجه مع « بروير » ثم « فرويد » .